المرء كل يوم في شوارع (المدائن) عشرات البلديين، وقد يصبحون قريباً مئات، من غير أن يُظَنّ به التدبير لمؤامرة. والذي سمعه للتوّ من فم صديقه لا يحتوي بالتأكيد على أيّة كلمة تدلّ على العصيان. بيد أن «مالكوس» كان متخوِّفاً. فهو يعرف «ماني» حقّ المعرفة لكي يُخمّن أن تعليمه لم يكن إلا في بدايته، ويستشعر أنه لن يتوقّف إلى الأبد عند ملاحظات حالمة عن بدايات الكون. وسوف يلفظ صديقه ذات يوم قد يكون قريباً الجملةَ الفائضة التي تُحْدِث ما يتعذّر إصلاحه. وبقدر ما كان «الصُّوريّ» يُجيل الأمر في ذهنه كان الخطر يبدو له أوضح وأقرب. بل لقد رأى نفسَه ملقىً في زنزانة بتهمة التواطؤ، وتجارتَه مُفلسةً، وجميعَ مطامحه متلاشيةً، وامرأتَه مرغمةً على التسوُّل. . .

قال له فجأة: .

ـ أريد أن أتحدّث إليك يا «ماني».

لم تكن النبرة جافية، بل سعت فقط إلى أن تكون جادّة وصريحة. وابتدأ ابن (بابل) بالابتسام.

ـ هيّا افرد حاجبيك، إن هذه السحنة المتجهّمة لا تتلاءم جيداً ووجهك الممتلئ. ولكن تكلّمْ، قل لي ما يُثْقِل قلبك. . .

ـ لقد عشنا أنا وأنتَ صِبانا كلّه في بستان النخيل ذاك، بمعزل عن العالم، عن أفراحه وأتراحه، وعشتَ أنتَ، أكثر ممّا عشتُ أنا، في كتبك، وليس من يعرف خيراً منك الطبّ وعلوم الدين، وإني لمعجب بعلمك وموهبتك واندفاعك، وإنّ رجالاً مثلك ليتركون آثاراً على الأرض التي وَطَأوها وفي قلب المقرَّبين. بيد أن هناك أحمالاً من الأشياء التي تفوتك ويدركها أشدّ الناس خشونة خيراً ممّا تدركها، فهل أنت مستعدّ للقبول بها؟

وافق «ماني» فآنس صديقه في نفسه الشجاعة على المتابعة.

ـ يبدو لي أوّلاً أنك نسيت أن سيّد (المدائن) وهذه الإمبراطورية بأسرها هو «أردشير الساسانيّ»، ملك الملوك. وأصرّ على تذكيرك باسمه واسم سُلالته وبأنّه